مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Planning and Studies

تأثيرات المياه في ضعف العلاقة بين العراق وتركيا

إريكا سولومون – لورا بيتل

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌّ، غيرُ ربحيّ، مقرّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليل مستقلّ، وإيجاد حلول عمليّة جليّة لقضايا معقدة تهمّ الحقليْن السياسي والأكاديمي.

حقوق النشر محفوظة © 2018

www.bayancenter.org

info@bayancenter.org

تأثيرات المياه في ضعف العلاقة بين العراق وتركيا

إريكا سولومون*- ولورا بيتل **

على الرغم من أنهما من جيلين مختلفين، ومن بلدين مختلفين، ويعيشان بعيدين عن بعضهما بمسافة ١١٠٠ كيلومتر، لكن مصير كل سليمان أغالدي ونشوى نصر مرتبط بالسياسات التي قد تغير نهر دجلة الذي روى مدينتيهما لقرون، وبات الآن كلاهما مهدداً بالتهجير. سيشاهد السيد أغالدي البالغ من العمر (٣٩ عاماً) الذي يسكن في جنوب شرقي تركيا، الكهوف القديمة والتكوينات الصخرية في مدينة حسن كيف –مسقط رأسه– تغمرها المياه ببطء بسبب سد إليسو المثير للجدل الذي سيُغرق في الأشهر المقبلة منازل وحدائق وُجدت منذ آلاف السنين.

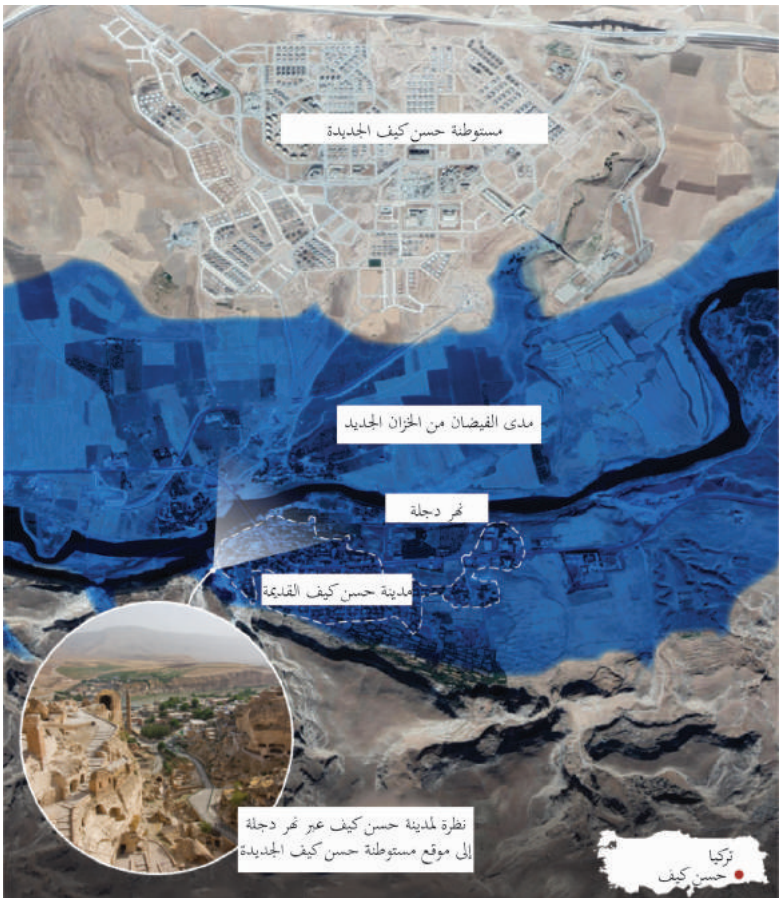

* إريكا سولومون مراسلة صحيفة فاينانشيال تايمز لشؤون الشرق الأوسط

** لورا بيتل مراسلة صحيفة فاينانشيال تايمز في تركيا.

غير أن غرق موطن السيد أغالدي يهدّد أيضاً بالتسبب بنقص حاد في أهوار مدينة السيدة نصر في جنوبي العراق، وهي التي طالما استقبلت مياه نهري دجلة والفرات، وهما يتدفقان من المرتفعات التركية، إذ اعتادت السيدة نصر –مثل أسلافها– على تربية جاموس الماء بين القصب العالي، وفي صغرها كانت المياه عالية جداً، وكان يمكنها أن تنحني من منزلها المسقف بالقش، وتغرف من الماء، أما الآن، فحتى لو كان بمقدور السيدة البالغة من العمر ٧٨ عاماً أن تصل إلى الماء من كوخها فإنها ستجده ملوثاً جداً وغير صالح للشرب. وتقول السيدة نصر إنها وعائلتها يفكرون في كل يوم، بالهجرة على مضض، لكنهم لا يعرفون إلى أين. وتضيف نصر: ”كل ما نعرفه هو تربية الجاموس. كيف سننجو من هذه المحنة؟ إننا ننتظر الرحمة من الله، والماء الآخذ في الانخفاض هو أيضاً رحمة من الله“.

ويقول ناشطون إن السدود على نهر دجلة مأساة ثقافية، ولها تداعيات جيوسياسية عميقة محتملة، فضلاً عن مضاعفتها لآثار التغير المناخي، وإثارتها لمخاطر الهجرة، مما قد يزيد من زعزعة استقرار كلا البلدين وجيرانهما، وهو ما سيؤدي إلى زيادة الهجرة إلى أوروبا، في وقت تسعى الأخيرة إلى كبح جماح تلك الهجرة غير الشرعية.

تقول تركيا إن مشروعها الذي استمر عقوداً من الزمن لبناء ٢٢ سداً، هو الطموح الذي تهدف إلى تحقيقه نهاية العام المقبل على طول نهري دجلة والفرات، من أجل إنتاج الطاقة وتوفير الوظائف. غير أن مشروع جنوب شرق الأناضول، الذي يطلق عليه اختصاراً في تركيا GAP، قد أصبح مرتبطاً بالتوترات الداخلية المريرة بين الدولة التركية، والأقلية الكردية في جنوب شرقي البلاد، والتمرد العنيف الذي يقوده حزب العمال الكردستاني.

ويرى خبراء الأمن أن نقص الموارد يعطّل المجتمعات، ويمهد الأرضية لتجنيد المتشددين. أما العراق، فإنه بعد هزيمة تنظيم داعش عسكرياً يحتاج إلى إدامة الزخم ضد التنظيم الإرهابي، لأن ذلك يعتمد عليه خلق مستقبل أكثر إشراقاً للبلاد. في ضوء هذا الأمر، تعد المياه عاملاً حاسماً لتحقيق ذلك، إذ إن أكثر من ٨٠٪ من مياه العراق تذهب إلى الزراعة التي يعتمد عليها أكثر من ثلث السكان البالغ عددهم ٣٧ مليون نسمة.

وقد أعلنت وزارة الموارد المائية العراقية –حتى قبل الشروع بملء سد إليسو– أن الإطلاقات المائية انخفضت هذا العام بنسبة ٤٠٪ عن المعدل المعتاد، وهو ما تسبب بحالة ذعر اجتاحت البلاد في بداية شهر حزيران، حينما وصلت مستويات المياه إلى درجة منخفضة، وأصبح بإمكان الناس عبور نهر دجلة سيراً على الأقدام في بغداد، وأدّى ذلك أيضاً إلى أن تمنع الحكومة زراعة الأرز والمحاصيل التي تستهلك كميات كبيرة من المياه لتقليل الأضرار.

ويقدر باحثون أن درجات الحرارة في الشرق الأوسط ترتفع بمعدل أسرع بمرتين من المعدل العالمي؛ بسبب التأثير المتزايد للمناخ الصحراوي، وهو ما سيجعل المنطقة غير صالحة للسكن بحلول نهاية هذا القرن. ومع إنشاء سدود كثيرة على نهر الفرات من قبل سوريا وتركيا المتجاورتين، ومعاناة بغداد المريرة لعقود من سوء إدارة المياه، فإن إطلاقات نهر دجلة تعد ذات أهمية شديدة.

ويقول الخبير البيئي من منظمة طبيعة العراق جاسم الأسدي: "بحلول العام ٢٠٣٥، سيتم خسارة ١١ مليار متر مكعب من المياه، وهو ما سيجعل تلبية الطلب السنوي المتوقع البالغ ٧١ مليار متر مكعب، صعباً جداً بحلول ذلك الوقت. ومع ارتفاع درجات الحرارة، ستزداد وطأة السدود سوءاً بسبب قلة تساقط الثلوج عند منبع نهر دجلة وارتفاع معدلات التبخر؛ لذا فإن مستقبل المياه في العراق حالك جداً".

متظاهر ضد إنشاء سد إليسو. إسطنبول ٢٠١٢. وكالة رويترز

أما في بغداد، فإن المسؤولين والدبلوماسيين يحاولون التعامل مع تبعات سقوط تنظيم داعش، ويرون أن التعامل مع تركيا، والتغيّر المناخي يمكن حسمه في وقت لاحق.

أما في جنوب العراق، فيقول السكان المحليون إن الوقت قد بدأ ينفد، فإذا جفَّت الأهوار فإن المناطق الزراعية المجاورة في محافظة ميسان ستتعرض للجفاف نتيجة لذلك. ومع تراجع مستوى المياه من فروع نهر دجلة، فقد أُصيبت بالجفاف حوالي ٦٥٠ قرية خلال موسم الربيع، ومن بينها بلدة العدل، حيث يصف المزارعون هذا الربيع بأنه الأكثر حرارة على حد ما تسعفهم الذاكرة، والأكثر جفافاً منذ ٣٠ عاماً، ويتوقعون أن ناتجهم الزراعي المعتاد سيتراجع إلى النصف.

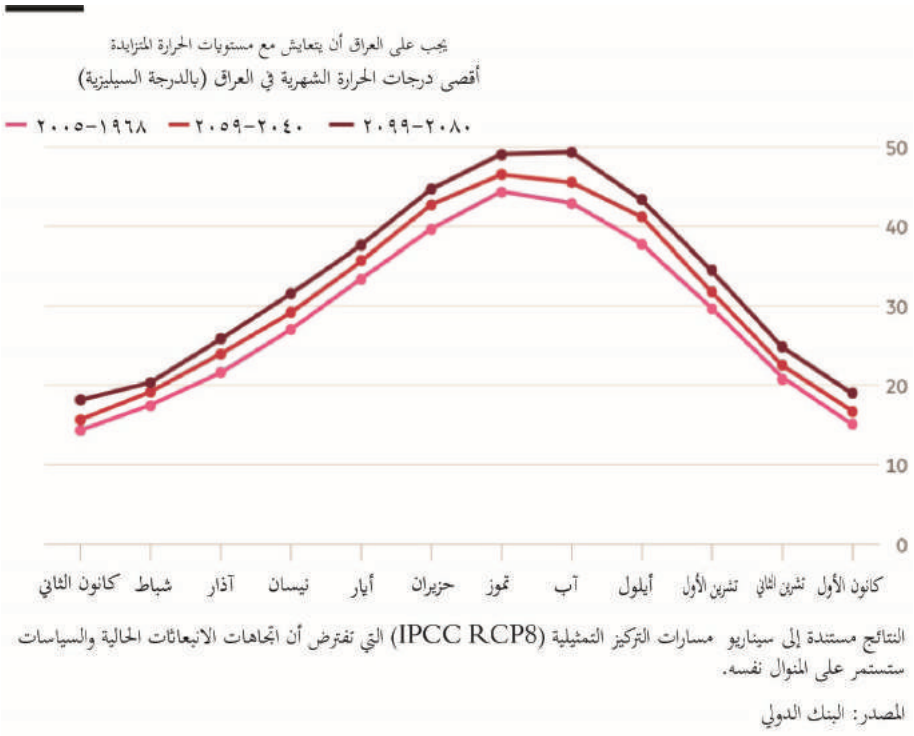

النتائج مستندة إلى سيناريو مسارات التركيز التمثيلية (IPCC RCP8) التي تفترض أن اتجاهات الانبعاثات الحالية والسياسات ستستمر على المنوال نفسه.

المصدر: البنك الدولي

ويقول أحد السكان المحليين في جنوب العراق واصفاً تأثير الشح المائي في السنوات الأخيرة: ”كان لدينا في البداية هجرة من الريف إلى مراكز المدن، فإذا جفّت المدن، فإننا لا نعلم إلى أين سنذهب؟“. وقد حدث أن اضطر مدير ناحية الخير حسين آل ياسين إلى استدعاء قوات الأمن لتفريق مشاجرات بالأسلحة حول المياه، وهو الآن يجتمع مع شيوخ محليين لمناقشة الحيلولة دون حدوث هجرة في المستقبل مرة أخرى.

انخفضت مستويات المياه في نهر دجلة ببغداد كثيراً في السنوات الأخيرة. وكالة رويترز

وكانت تلك المنطقة واحدة من العديد من المناطق التي أُجبرت على النزوح في التسعينيات، حينما حوَّل صدام حسين مجاري الأنهار لتجفيف الأهوار من أجل البحث عن المعارضين المختبئين هناك. وقد هدم السكان المحليون تلك الحواجز، بعد أن أطيح بصدام حسين إبان الغزو الأمريكي عام ٢٠٠٣، وقد تدفقت الأنهار مرة أخرى. غير أن بناء السدود وانخفاض معدل هطول الأمطار وممارسات الري غير النظامية تعني أن الأهوار التي تبلغ مساحتها التأريخية ١٥ ألف كيلومتر مربع ستتقلص إلى حوالي ٥٠٠٠ كيلومتر مربع، ومن المرجح أن يزداد ذلك.

ويبدو أن شيوخ القرية عاجزون عن تقديم المشورة للناس العاملين في مجال الزراعة لأجيال، الذين قد لا يكون أمامهم خيار سوى التوجه إلى أحياء فقيرة في مدن العراق الرئيسة، وهي أماكن معروفة بأنها بؤر لتجنيد المسلحين.

ويقول أحد السكان المحليين: ”إن شعبنا خائف بطريقة لا يفهمها الآخرون. كيف سيتمكنون من كسب عيشهم في المدينة؟ لن يمكنهم تربية الجواميس هناك، ولن يمكنهم الزراعة أو صيد السمك“.

أما في الشمال وفي ركن هادئ من جنوب شرقي تركيا، فيطغى صوت معاول الهدم في ذلك المكان، حيث يقوم العمال بتفكيك مدينة حسن كيف. وقد نُقل في العام الماضي نصب تذكاري يعود إلى القرن الخامس عشر على مبعدة ميل إلى أرض مرتفعة. ويفجر العمال الآن تشكيلات صخرية، ويوزعون بلاغات الإخلاء إلى الشركات، ولا أحد يعرف متى ستغمر المياه الوادي، لكن الكثيرين يخشون من ذلك.

يقول السيد أغالدي الذي يبيع الشاي للسياح في مقهى صغير يطل على البلدة: ”لقد عشت هنا طوال حياتي، وكانت جدتي تعيش في هذا الكهف هناك“. وبالقرب من هذا المكان، توجد المنازل الجديدة التي بُنيت كمستوطنة بديلة لـ ٧٠٠ منزل رُحّل، وأحد هذه المنازل مخصص للسيد أغالدي، لكنه يقول إنه لن يذهب ليعيش هناك.

نشوى نصر: مربية جاموس. الصورة: إيركا سولومون

ويغمض السيد أغالدي عينيه، وهو يميل بجسده مرة أخرى على كرسي بلاستيكي، ويجاهد في استذكار صورة الحياة عبر الوادي، ويقول: ''أحاول أن أتخيل أطفالي يعودون من المدرسة أو يلعبون، لكنني لا أستطيع البقاء ذهنياً هناك، فأعاود الرجوع إلى حسن كيف القديمة''.

ويقول المسؤولون إن مشروع GAP لن يضمن فقط أن ربع الطاقة التركية ستأتي من الطاقة الكهرومائية، بل إنه أيضاً سيضيّق فجوة الثروة بين منطقة جنوب شرقي تركيا الأكثر فقراً، وبقية البلاد بسبب التوسع الهائل في مساحة الأراضي المروية، وتوفير الآلاف من فرص العمل.

غير أن طموح تركيا الكبير لبناء السدود قد غرق في لُجّة الصراع الكردي الذي تعاني منه البلاد، فقد كان ينظر الى قرار بناء سد أتاتورك الهائل في الثمانينيات على أنه محفّز لقرار سوريا البدء بدعم حزب العمال الكردستاني المناهض للدولة التركية.

ويأمل المسؤولون اليوم أن يساعد دعم التنمية في جنوب شرقي البلاد في تقليل التعاطف والدعم لذلك التنظيم. غير أن الناشطين الأكراد يقولون إن الضرر البيئي والثقافي والاجتماعي الذي تسبب به سد إليسو سيؤدي إلى تفاقم الأسباب الجذرية للصراع، بدلاً من القضاء عليها.

ويزعم بعضهم أن الهدف الأساس للحكومة في بناء السدود هو سحق التطلعات السياسية الكردية، إذ يقول الزعيم المحلي في حزب الشعوب الديمقراطي ردفان آيهان –جماعة كردية معارضة–: ”إنهم يريدون إجبار الناس على مغادرة المناطق الريفية والذهاب إلى المدن، وهو ما سيؤدي إلى نزوح الناشطين السياسيين عن أراضيهم“.

يسير نهر دجلة عبر المدينة القديمة في حسن كيف. وكالة رويترز

وقد قيل ذلك حتى من قبل وسائل الإعلام الموالية للحكومة التي عدّت سد إليسو جزءاً من الحرب ضد حزب العمال الكردستاني، كون الفيضان في وديان الأنهار سيعطل تحركات تلك الجماعة. ويقرّ السكان والناشطون بأن السدود قد تنجح في القيام بذلك، لكنها على المدى البعيد ستُذكي الغضب الكردي، وسيدعم الناس حزب العمال الكردستاني.

ويفيد أحد الناشطين المناهضين لبناء السدود طلعت ستينكايا بأن اجتثاث الناس وإغراق أراضيهم سيؤدي إلى إطالة أمد حلقة النزوح والخيبة، وسيخلق طبقة دنيا جديدة.

قطيع جاموس خارج مدينة الجبايش، جنوب العراق. الصورة: إيركا سولومون

أثار سد أتاتورك حينما أُفتتح في عام ١٩٩٢ توتراً دبلوماسياً، حين قال الرئيس التركي آنذاك سليمان ديميريل لجيرانه، أنه مثلما هم باستطاعتهم استغلال مواردهم النفطية، فإن تركيا لديها حقوق مماثلة في المياه التي تنبع من أراضيها. أما اليوم، فيقدم المسؤولون الأتراك خطاباً ذا نبرة تصالحية، ويصرون على أن هدفهم هو ضمان تقاسم المياه عبر المنطقة بطريقة ''عادلة ومعقولة ومثالية''. غير أن وزير الموارد المائية العراقي حسن الجنابي يتهم أنقرة باستخدام المياه كسلعة يمكن المساومة عليها، ويقول إن العراق سيبقى ضعيفاً ما دام لا يوجد تفسير مشترك لقانون المياه الدولي.

وقد تفاوض البلدان أكثر من مرة حول خطة ملء سد إليسو، وقال الجنابي إنهم توصلوا إلى اتفاقية ''عادلة'' تفيد بأن تركيا ستطلق ٥٧٪ من ماء النهر، بينما ستحتفظ بالمتبقي لملء السد تدريجياً خلال الأشهر المقبلة. ومع ذلك، ما يزال من غير الواضح كمية المياه التي ستأخذها سدود GAP للزراعة، وقد قوّضت قدرة الوزير العراقي على التفاوض بشدة بسبب الاضطرابات والحروب التي اجتاحت بلاده منذ العام ٢٠٠٣، ويقول الجنابي إن ''العراق أصبح بلداً ضعيفاً جداً''.

ومن الجدير بالذكر أن إيران هي أيضاً تستنزف نهر دجلة، إذ قال مسؤولون عراقيون إن السدود المنشأة على طول عشرات الروافد قد تسببت في انقطاع أكثر من نصف المياه التي تتدفق إلى الجانب العراقي، مقارنة بما كان عليه الحال قبل ٢٠ عاماً.

يرى المسؤول سابق في إدارة المياه بتركيا دورسون يلدز –الذي يرأس الآن أكاديمية السياسات المائية التي تتخذ من أنقرة مقراً لها– أن سدود تركيا تفيد جيرانها، فدرجات الحرارة الأكثر برودة في تركيا تعني أنه يمكن تخزين المياه هناك؛ مما سيوفر للبلدان الواقعة في مصب النهر ملايين الأمتار المكعبة الناتجة عن خسائر التبخر.

ويقول يلدز: ”عليك التحكم بالماء، لأن الوقت الذي يحدث فيه هطول الأمطار ليس هو نفسه الوقت الذي تحتاج فيه الأراضي للمياه. ولا ينبغي أن يكون التحكم مصدراً للنزاع، بل سبيلاً للحل“.

يحصد المزارعون الحنطة في وقت مبكر بسبب شح المياه خارج ناحية العدل. الصورة: ايركا سولومون

وقد أشار تقرير للأمم المتحدة لعام ٢٠١٥ إلى أن السيطرة على تدفق المياه من قبل تركيا قد تسببت ”بعواقب وخيمة“، مثل مستويات الملوحة العالية في مصب النهر، وهو ما يؤثر على المحاصيل الزراعية، ويدمر النظام البيئي الأوسع. ويقول خبراء بيئة عراقيون إن مستويات الملوحة

في الأهوار في العراق التي –كانت تبلغ حوالي ٢٠٠ جزء في المليون– تبلغ الآن ١٩٠٠ جزء في المليون.

إن الحل الحقيقي، هو أن تتفق كل من أنقرة وبغداد على تحديث ممارسات المياه والزراعة العراقية القديمة، ويجب استبدال قنوات الري التي تعود إلى العصر السومري بنظام الري بالتنقيط، وتشجيع المزارعين على الانتقال إلى زراعة محاصيل جديدة بدلاً من القمح الذي يستهلك كميات كبيرة من المياه، والذي يمكن استيراده بأسعار رخيصة.

وكان الوزير حسن الجنابي، قد اقترح مشروعاً مدته ٢٠ عاماً لتطوير ممارسات مائية مستدامة، بتكلفة تبلغ ١٨٤ مليار دولار، غير أن العراق –المثقل بديون بقيمة ٧١ مليار دولار بسبب سنوات من انخفاض أسعار النفط– قد لا يستطيع تحمل ذلك. ويقول الجنابي: ”نحن بحاجة إلى التكيف، لكنه حتى التكيف يكلفنا المال، وهذا المال غير متوافر“. فضلاً عن أنه حتى الآن يعد التكيف بالنسبة لكثيرين أمراً بعيد التحقق.

ويترقب السيد أغالدي في مدينة حسن كيف سيكون اليوم الذي يضطر فيه إلى مغادرة المدينة، ويتساءل إذا كان كهف جدته سيغرق مع بقية الوادي أو لا.

أما في الجبايش الشديدة الحرارة، فإن السيدة نصر وأبناءها يتساءلون إذا كانوا سيلحقون بجيراهم الذين فروا باتجاه أهوار إيران سعياً وراء بداية جديدة، لأن الأهوار بالنسبة إليهم هي الحياة.

المصدر:

https://www.ft.com/content/82ca2e3c-6369-11e8-90c2-9563a0613e56